العلامة محمد إسعاف النشاشيبى
أديب يُنكرِ فضْلَه!

تجلسُ مع أديب العربيّة الأكبر المغفور له الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبى، علاّمة فلسطين، ووارثِ علِم سيبويه والمبرد والأصمعى، فتحارُ كلّ الحيرة فيما تلمسُ من سعة اطلاعه، وتنوّع معارفه، وغوصه على الدقائق الدفينة فى مطاوِى المخطوطات، فَضْلاً عن المطبوعات، ولستَ وحدك الذى يَحَارُ، فكلّ من يستمعون إليه فى مجلسه الحاشد يعجبون ويدهشون، وهم ـ بَعْدُ ـ فى طليعة المثقفين غزارةَ مادّة، وشمول ثقافة، وشدة تنقيب؛ إذْ كانَ الرجلُ ـ رحمه الله ـ موسوعةً علميَّة تنطق بما ضمَّتْ من الذخائر والكنوز.

وقد يظنُّ بعض القراء أنِّى أجنح إلى المبالغة، ولكنَّ من سعِد بمعرفته، يشهد صادقًا بما أشير إليه من ميزاتٍ علميّة قلَّ أن تُوجد إلاَّ عند الأفذاذ، وهأنذا أركِّى قولى بشهادة الأديب الكبير أحمد حسن الزيات صاحب مجلة الرسالة؛ حيث يقول عنه:

«.. لقد وقف نفسه ووقتَه وجهدَه على دراسة الإسلام الصحيح فى مصادره الأولى، وتحصيل اللغة العربية وعُلومها وآدابها من منابعها الصافية، فكان آيةً من آيات الله فى سعة الاطلاع، وتقصّى الأطراف، وتمحيص الحقائق... لا تُذكَرُ مسألةٌ إلاَّ كان له عنها جواب، ولاتُثار مشكلة إلا أشرقَ فيها رأى، ولا تُرْوَى حادثة إلاّ وَرَدَ عليها مثل، ولا يحضُر ندوتهَ أديبٌ مطّلع إلا جلسَ فيها جلسة المستفيد؛ فهو من طراز أبى عبيدة والمبرد، لذلك كان أكثر ما يكتب تحقيقًا واختيارًا

المستفيد؛ فهو من طراز أبى عبيدة والمبرد، لذلك كان أكثر ما يكتب تحقيقًا واختيارًا وأماليَّ، وكان خاتمة طبقةٍ من الأدباء اللغويين المحقّقين».

إنكار الذات:

وقد أُتيح لى أن أسعدَ بزيارة الأستاذ مرّات فى مجلسه «بالكونتنتال» بالقاهرة؛ إذ كانَ يزورُها كثيرًا، فيتوافد عليه أهلُ المعرفة من عاشقى أدبه، وكان السبب فى اتصالى به لا يَخْلُو من طرافة وهو من ذكرياتى الأدبية التى أُعْنَى بتسجيلها، لما تتضمن من مَغْزًى خُلقى، واتجاهٍ سلوكىّ يحسن أن يُلمّ بهما من يحرصون على الخبر الأدبىّ الطريف:

كنتُ فى نشأتى الأدبية الأولى حريصًا على قراءة المجلاتّ الأدبية الرصينة، وكانت مجلّة الرسالة فى طليعة هذه المجلات علْمًا دقيقًا، وأدبًا صافيًا، وفنّاً رفيعًا، واختيارًا حصيفًا، فكنت أقرأبها بحوثًا أدبيّة متصلة الحلقات، تمتاز ببُعْد الغور، ونفاذ النظرة، وبراعة النقد، ولكنّ صاحبها لايُعلِنُ عن اسمه، وإنّما يُكتَبُ العنوان فى أعلى الصفحة الأولى من المقال منسوبًا إلى من قال عنه صاحب المجلّة «أستاذٌ جليل»، وتتوالى البحوث المتشعبة لغةً وتاريخًا ونحوًا وأدبًا ونقدًا، والباحث الكبير لا يُسفر عن وجهه، بل يدع أمثالى من القرّاء متسائلاً: كيف يجوزُ لمن بلغَ هذا المبلغَ من السطوة العلمية الفذة أن يُنكر نفسه فلا يُعرف؟ ثم أقول: لعلّ الباحث الكبير مشهورٌ لدى الخاصّة دون العامّة، فهو يكتفى بمعرفة زملائه الكبار، دون سائر القرّاء، ولا أكتمُ القارئ أننّى سألتُ عنه أساتذتى، ومن أتّصلُ بهم من قراء الأدب وعشّاق الثقافة، فلمْ ألمسْ جوابًا شافيًا، ولا أدرى لماذا شَغَلنى هذا الخاطر بتكرارِ مقالات الأستاذ فى الرسالة، وكنتُ أجد من يُعقبون على بعض آرائه فى المجلّة، لايذكرون غير هذه العبارة «ذكر الأستاذ الجليل فى مقالة كذا» دونُ إشارةٍ ما إلى اسمه، ولكنّ ما يسوقونه من عبارات الثناء يدلّ على أنهم يتحدثون عن قمة من قمم الأدب، فهم يُوَفّونه حقّه من الإجلال، وكأنهم يعرفونه، ويحترمون رغبتهَ فى التنكّر ـ والاختفاء، ثم أدهشنى أن أجدَ عالمًا بارزًا

من كبارِ علماء مصر، وعضواً مرموقًا من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة يقع فيما أقع فيه من الحيرة، فينشر فى مجلة الرسالة خطابًا «إلى الأستاذ الجليل» يقول فيه:

«إنى ليطربنى ياسيّدى أن أقرأ لكم هذه المقالاتِ القديرة، الزاخرة بالفائدة، فى نقد الطبعة الأخيرة من (العقد الفريد)، وليست تلك النقداتُ وحدها هى التى سَبَتْنى من علمِك الغزير، واطلاعك المنقطع النظير، وإحاطتك بما تكنّه ضمائر أسفار السابقين الأوّلين من أئمة اللغة وحفّاظها، بلْ تتبّعْتُ فى الرسالة الغرّاء كلَّ ما دبّجَتْه يراعتُك منذ أول عهدك بها، لم تفُتْنى منه فائتةٌ، بل لقد اتخذتُ منه دروسًا أتوفَّر عليها، وأعكفُ على الإفادةِ منها، والتضلّع من معينها الفياض.

وإنى لأعجبُ ياسيدّى كل العجب فى هذا العصر الذى يُباهى بالقشور، وسُخف القول، كيف تتستّر وتحتجب، وتقفُ فى تواريك هذا وعزلتك مرُشدًا وهاديًا لاتبتغى غير خدمة وطنك ولغتك. وإنْ أسفتُ على هذا التستّر والاحتجاب، فإنما أسفى على أنّ أمثالى من طالبى المعرفة، يودّون لو أُتيحتْ لهم فرصةُ لقائك ليستزيدوا منك، وليتحلوا بما يشهدون فيك من كمال الخلق، ولكنك زهدتَ فى نباهة الذكر، وعِفْتَ الإعلان... وضربتَ المثلَ فى التواضع وإنكار الذات، فليتعلَّمْ من هذا المثل الصالح من يتطاولون على صفحاتِ الجرائد والمجلات، فيدَعون ما يتصاولون من أجله، ويخرجونَ إلى ميادين العيب والتجريح..»

قرأتُ هذا الخطاب، وكاتبُه هو الأستاذ الكبير أحمد العوامرى بك، كبيرُ مفتّشى اللغة العربية بالوزارة، وعضو مجمع اللغة، وصاحب التحقيقات العلمية الدقيقة بمجلة المجمع، وناشر الثمين من كتب التراث، فقلتُ فى نفسى إن الرغبة فى معرفة (الأستاذ الجليل) لاتقتصر على الصغار من الطلاّب مثلى، بل تتعدّاهم إلى القادة من كبار العلماء، وأئمة المحققين، وقد عبّر العوامرى عن رأيه فى مجلة الرسالة، فلماذا لا أكتب أنا الآخر، فأضمُّ صوتًا إلى صوت!

ثم خجلت من نفسى، وأنا طالبٌ بالسنة الأولى من القسم الثانوى حينئذ أن أتبع كلمة العوامرى بكلمة لا تَبْلُغُ مبلغها من الإصابة، وستكون تكراراً غير مفيد إذا سمحت المجلة بنشرها، وقد يسألنى أساتذتى بالمعهد ماذا أفدْت؟ وقد تكلم العوامرى بما يغنى عن مقالك؟ فبماذا أجيب؟

غير أن الإلحاح يعاودنى مُصِرا على أن أجهرَ بمشاعرى، فاهتديتُ إلى أن أنظم قصيدة شعرية فى هذا المجال، وحينئذ لاتكون تكراراً، فاستعنتُ بالله، وقلتُ من قصيدةٍ طويلةٍ موجّهاً الخطابَ إلى الأستاذ الجليل:

دع اللثام

دع اللثامَ، فقد واليتَ تعذيبى ... ياطالما ضلّ فى واديك تنقيبى
حجبتَ نفسَك فى شمّاء شاهقةٍ ... لكنّ سيبكَ عنّا غيرُ محجوب
فكنتَ مثلَ النسيم الطلق ينعشنا ... ولا نراهُ بتحديق وتقليب
فيم استتارُك؟ والأشواقُ جامحةٌ ... والعين ما بين تشريق وتغريب
ونحن فى زمنٍ، كلٌّ يتيه بما ... يزجيه للناس من فُحْشِ الأكاذيب
هو التواضعُ فى أسمى مظاهره ... لقد قبضتَ عليه بالتلابيب
فهات بَحْثَكَ، إنّا معشرٌ كلفٌ ... بما تُدَبِّجُ من بدءٍ وتعقيب
فكم مقالٍ رصين الفكر مؤتلقٍ ... منمّق الصوغ، مختار التراكيب
دنيا بمختلِف الآيات حافلة ... يريك منظرها شتّى الأعاجيب
فمن بيانٍ إلى نحوٍ إلى لغةٍ ... من كل مؤتلق فى العين مرغوب
مباحثٌ زادها فى النفس منزلة ... أن اسمَك الفذّ فيها غير مكتوب
أسلوبك المشتهى تلقاه منفردًا ... بطابعٍ واضح بين الأساليب
ما إن أراه على القرطاس مُرْتسما ... حتى أسوق إليه كل ترحيب

كأنه إذ يُوافينى بطلعته . . . (قميص يوسف فى أجفان يعقوب)
إخال أحرفَه السوداء قد كُتبت بالمسك يعبقُ منهُ عاطر الطيب
أستاذِىَ الفذّ، قُل لى غيرَ منتظرٍ من أنت؟ واكشِفْ قناع الشك والريب
قلبى يحدثنى فى كل آونةٍ أنّ اسمك الحقّ (إسعاف النشاشيبى)

والبيتُ الأخير ينطقُ بمعرفتى اسم الباحث، وقد جاء ذلك من معاودتى لبعض المقالات التى ينشرها النشاشيبى بتوقيعه الصريح؛ إذْ أراها تتّفق فى سمتها العام مع المقالات التى يكتبها (الأستاذ الجليل) طريقةً ومنهجًا واستطرادًا، فقلت لابدّ أن المقالة المعلومة كالمقالة المجهولة تخرجان من مشكاةٍ واحدةٍ، وترجّح ذلك لدىَّ ترجيحًا بعد صبرٍ طويلٍ، فلم أشأ أن أكتمه، ثم بعثتُ بالقصيدة إلى مجلة الرسالة لتتكرّم بنشرها، ولكنّ الزمن يمرّ بدون أن أجدَ لها صدًى، فقلت فى نفسى، لعلَّ الشعر ركيك فى رأى رئيس التحرير، أولعلّى أخطأتُ صاحبَ الاسم الحقيقى، ومع هذا التردّد، فقد شعرتُ بأسفٍ لإهمال القصيدة هكذا.

مضتْ سنوات سبع، فاتصلت بمجلة الرسالة كاتبًا، وعرفتُ أستاذنا الزيات معرفة شخصية لتردّدى على مكتبه، ثم كانت المفاجأة!

لقد انعقدت ندوة الرسالة ذاتَ مساء، والتأم الشملُ بحضور نفرٍ من كتّاب المجلة، يتسامرون كعادتهم كلّ أسبوع، ثم انفرج الباب عن مقْدم زائرٍ كبير، هُرِع الأستاذُ الزيات للقائه مسرورًا، وهو يقول: أستاذنا النشاشيبى، ومضَى يعرّف الزائر بالحاضرين، حتى جاءَ دَوْرى، وما كاد الزيات ينطق باسمى حتى ابتسم النشاشيبى ابتسامًا غامرًا، وفتَح ذراعيْه لاحتضانى، وهو يقول:

قَلْبى يُحدثُنى فى كل آونةٍ أن اسمك الحقّ إسعاف النشاشيبى

فتحيّرتُ أكبر حيرة؛ لأن القصيدة لم تنشر، فكيف عرفها الأستاذ الجليل؟ وكأنه أدرك حيرتى فجلس جوارى، وقال: لقد قلتَ قصيدةً عامرةً، أرسلها لى الأستاذ

الزيات كى أرى رأيى فى نشرها، فاحتفظتُ بها فى أعزّ مكان، ولو عرفتُ عنوانك لراسلْتكُ شاكرًا، ولم أرغبْ فى نشرها كيلا تفْضَحَ اسمى؛ فأنا أودّ أن أظلَّ مستترًا عن الكثيرين، لأنقدَ فى حريّةٍ بعيدة عن المجاملة! وأحيانًا أنكر نسبة المقال لى جَبْرا لخاطرِ من يخدشهم النقد، فماذا أصنع؟

ثم قال لى، لابدّ أن تزورَنى فى الفندق غدًا، لنتناول الغداء، وحاولتُ أن أعتذرَ فأصرّ، وكرّرتُ الاعتذار، فلم أفلح.

فى مجلس النشاشيبى:

ذهبتُ إلى الأديب الكبير فى الموعد المحدّد، فوجدتُ من إيناسه ولُطفه وبشاشته ماراعَ وأطرب، وكان الاستشهاد بالشعر الأصيل ديدنَه؛ إذ ما تطرق القول إلى خاطرٍ من الخواطر إلا أسعفته ذاكرتُه بالجيد المختار، ثم قال لى: أتدْرى لماذا أوثر الاستتار؟ ومنذُ متى؟

قلتُ: ما أشوقَنى لمعرفة السرّ العجيب! فأطرق مليّاً ثم قال: رحم الله أبى، لقد كان من كبار أثرياء وطنه، ولديه من العمّال فى المتجر والمزارع جمعٌ هائل، كلّهم ينظرون إليه بإكبار، وكنْتُ أنشرُ نقداتٍ أدبية فى مجلات الشام بسوريا وفلسطين ولبنان، وأعنُفُ فى النقد، فيردُّ علىّ المنقودون بأعنف العبارات أحيانًا، حتى لنتشاتم!! وكان الأصحاب من تابعى الوالد، إذا وجدوا من يشتمنى فى الصحف، سارعُوا إلى أبى، فاستشاط غيظاً؛ لأنّه رجل أعمال لايُقدّر النقاش العلمىّ حق قدره، وكم مرّة دعانى غاضبًا، وصاح: تُشْتَمُ فى الصحف، وتُشْتَم معك أسرتُك يا إسعاف!!

وليستْ لى قدرة على محاورة أبى، فصرتُ من بعدها أقدّم النقد بدون توقيع، كيلا تُشْتَمَ الأسرة!! ومضى أبى إلى رحمة الله، فأصررتُ على أن أحيى ذكراه فى نفسى حين أرسل المقال بدون توقيع!

قلت: ولكنّ العطر يفوح! فضحك الرجل وقال: أىّ عطر يافتى! نحن أشواك.

وقبل أن أغادر المكان أحضر الأديب الكبير مجموعةً من مؤلفاته أذكر منها: الإسلام الصحيح، والشاعر الخالد، والبطل الخالد، والبستان.. وتفضّل مشكوراً بإهدائها إليّ، فدلّت على فَضْلٍ باذخ، وعلم غزير...!

* * *

الحاج محمد أمين الحسينى
مفتى فلسطين

الحاج محمد أمين الحسينى مفتى فلسطين أشهر من أن يُعَرَّف، وقد كان فى أثناء الحرب العالمية الثانية موضع إشفاق المسلمين جميعًا، لأنّه مطارَدٌ من الإنجليز واليهود معًا، إذ كانت مواقفه الوطنية شَبحًا فى حلوقهم، وقد اضطربت به الأرضُ، فتنقّل من فلسطين إلى لبنان، فالعراق، فإيران، فتركيا، ثم إلى ألمانيا، حيث وجد بعض الحماية فى كنف أعداء الإنجليز، حتى إذا دارت الدائرة على الألمان زاد الحرج والإشفاق، واختفت أخباره عن العرب فى مصر والشرق جميعًا، وكثر تساؤلُ المخلصين من عارفى فضله، وكنت أحَدَ الذين شُغلوا به حينئذ، لأنى أعرف كفاحه البطولى، وقد جاش خاطرى بالشعر، فنظمت قصيدة قلت فى مطلعها:

تغيَّبَ حتى ما يُتاحُ له عَوْدُ ... سلامٌ عليه كيف طوّحه البعدُ
جفَا أرضَه واعتاضَ عنها بغيرها ... كأن لم يكن فى الحب بينهما عهدُ
ترحَّل عنها فهى ثكلى تقلّبَت ... على جمرات ليس يخبو لها وَقْدُ
تناشدُه الرّجعى، وكيف مجيئه؟ ... وقد صُمت الجدران وارتفع السدُّ
وتبعثُ برقياتها كلّ ساعة ... ومازال يغلو فى السكوت ويشتدُّ
لقد ضجّت الأسلاك حتى تحطمت ... فيالرسالات تروح ولا تغدُو

والقصيدة طويلة، وقد نَشرتُها فى مجلة الإخوان المسلمين، ثم شاءَ الله أن تنزاح الغُمة، فاستطاع المجاهد الصابر أن يفلت إلى مصر، ووقاه الله كيد الأعداء،

فأتى سالمًا منصورًا، وفرحنا فرحًا شديدًا بمقدمه. وأذكر أنى كنتُ فى جريدة البلاغ، فوجدتُ الشاعر الكبير الأستاذ محمود رمزى نظيم يصيح فى فرح: الحمد لله، لقد وصَل الحاج أمين إلى مصر هذا اليوم، وذهب من فوره إلى قصر عابدين، فوجد الحماية من الملك والوزارة والأمّة، ولاتسْل عن الشعور العام حينئذ، شعور الفرحة والاغتباط.

وبعد عدة شهور قابلت صديقى الأستاذ صبحى الصالح، الطالب بكلية أصول الدين (ونائب مفتى لبنان الشهيد فيما بعد) وكان يعلمُ عظيمَ تقديرى للمفتى الأكبر، فقال لى، لقد فاتَك شىء كبير جدا يارجب، قلت: ماذا؟ قال بالأمس ذهبَ وفد من طلاب الأزهر الفلسطينيين إلى مقابلة الحاج أمين، وذهبتُ معهم، فقضينا مع الرجل الكبير أحلى ساعات العمر، وتحدث معنا حديثًا مسهبًا، وعقدَ علينا آمالاً كبارًا، ودامت المقابلة ساعتين، قلت: وكيف لى بلقائه؟ فقال: سيذهبُ وفد سورى من طلبة الأزهر والجامعة للقائه بعد أيام، وسأخبرك قبلها، قلت: ذلك عهد، قال: وسأعمل على الوفاء به.

ولم تمض أيام، حتى كنت بين الزملاء فى حضرة المفتى الأكبر، وقد شعرت بعظمته الشخصية، وهو يلبس عمامته المرتفعة عن مثيلاتها مما نعهُد، ويضعُ العباءة الفضفاضة على كتفيه، فيحسبه الرائى بعمامته وعباءته ملكًا عربيا، ذا تاج بهيج، وحلّة رائعة، هذا من ناحية المظهر، أما المخبر فما سمعتُ من حديثه الهادئ المطمئن، جعلنى أقدّر فيه رزانة السلوك، وهدوء النفس، وبساطة التناول بحيث لم أشعر أن المجاهد الأكبر يطلّ علينا من الأوج، بل يجلس معنا فى السفح! وقد سأل عن أسمائنَا واحدًا واحدًا، وعن معاهدنا الدراسيّة، وحين جاء اسمى قال الأستاذ صبحى الصالح: إننى شاعر، وإننى نظمت أحسن قصائدى فى تحية المفتى الأكبر إذ كان مغربًا فى أوربا، فابتسم الرجل ومدّ يده إلىَّ مصافحًا، وقال: لقد قرأتُ عدة قصائد تفضلّ بها أصحابها علّى، وبَعَثَ بها من مصر مَن يعرفونَ مكانى من أقاربى، وأظننى قرأتُ ما نظمت، ولا أدرْى لماذا سكتّ، فلم أنطق بشىء.

لاحظ الشيخ الكبيرُ أن أكثرنا من طلاب الأزهر، فقال فى لطف: أنا أزهرى تعلمتُ عدة سنوات فى صحن الأزهر، ثم أُنشئتْ بمصر مدرسةٌ للدعوة، أنشأها السيد محمد رشيد رضا لتخرّج دعُاةً للإسلام يفهمون روح العصر، ومنطق الأحداث إلى فهمهم روح الشريعة ومنطق الدين، وأكثر أساتذتها من أعلام ذلك العهد، فالتحقتُ بها، لذلك كانت ثقافتى الأولى مصرية خالصةً، وإذا قلتُ مصرية خالصة، فهى الثقافة الإسلامية، وكنت أتمنى أن تستمرّ مدرسة الدّعاة هذه، ولكن ظروفَ الحرب العالمية الأولى حالتْ دون ذلك، لأن الإنجليز لمسوا تعاطف القائمين عليها مع تركيا والألمان، فحرصُوا على إغلاقها! وأنَا أدعو طلاب الأزهر من الآن إلى دراسة أحوال العصر وملابساته ليكونوا ألسنة المسلمين، ومصابيح الحق، وفيكم الرجاءُ بإذن الله، وحين انتهى المجلس وحان التفرّق نهض المفتى سابقًا إلى الباب ليسلّم على كلّ فرد، وليشدّ على يده ملاطفًا، وحين جاء دورى، قال لى: أشكرك، ولايضّر أن يتأخَّر الشكر عن موعده، فلكل شىء أوان!

خرجنَا من الاجتماع فى حالةٍ من السرور لا تُقَدرَّ، لأننا رأينا مَثَلاً حيا لزعامة متواضعة مؤمنة، لقد عهدنا بعضَ الزعماء يستطيلُ ويشمخ، ولايدورُ حديثه إلا عن نفسه، فإذا تكّلم فالصوتُ مرتفع، والنظراتُ متوقدة، والفخرُ المجلجل بالأعمال والمواقف لاينقطع، أمّا الأستاذُ العريق فى أستاذيته قبل أن يكون عريقًا فى زعامته، فقد أعطى القدوة المثلى للقائد الذى يستصغر تضحياته مهما كبرت، ويسردُ الأحداث لاليكون محورها، بل ليعطى الفكرة السياسية فى وضوح واتزان.

وقد حاولت أنْ أعاود الزيارة. ولكنْ قيل لى: إن ظروف المجاهد الكبير تحول دون المزيد من اللقاءات، فقد أشار ذوُو الأمر على المفتى بالاتئاد فى المقابلات والأحاديث، لأنّ الانجليز لايزالوُن موغرى الصدور لنجاته، ويتهمونه بالعمل على كراهيتهم، ومصر فى موضعٍ دقيق، فهى لاتحاولُ إغضاب السفارة البريطانية إذا أمكنها أن تتلافى بوادر هذا الغضب، ثم هى تتعهدُ بحماية الضيف الكبير، وهذا يكفى.. وكان هذا القول كافيا فى امتناعى عْن تحقيق ما آمُل، مكتفيًا بمتابعة ما

يُقال عنه فى الصحف والمجلاّت. والحقُّ أن الصحافة العربية قد أفسحتْ للرجل مكانًا طيّبًا، حين أخذتْ تشيد ببطولاته، وتتغنى بمآثره، غير عابئةٍ بما يتردد من الطنين الكريه، فهى تعلم ما وراءه من غل دفين. . .

لا أدرى كم مضى من الزمن، حتى قرأتُ فى الصحف أن جمعية الشبان المسلمين ستحتفل اليوم بجلاء الإنجليز عن مصر، وسيتحدّث خطباء من رجال السياسة والأدب بهذه المناسبة، وسيكونُ من بين المتكلمين سماحة مفتى فلسطين الحاج محمد أمين الحسينى، فقلتُ إنها لَفُرْصَةٌ جيدة تتيح لى أن أستمع إلى الرجل فى حديث عام، وابتدأ الاحتفال، وتتابَع الخطباء ، فكان منهم ذُو الانفعال الصاخب بدون تركيز عقلى، ومنهم ذُو النّسق المرّتب تعبيرًا وتفكيرًا وإلقاءً، ومن الفريق الأخير سماحة المفتى، حيث تكلم هادئًا، فتحدّث عن مكانة مصر فى العالم الإسلامى والعالم العربى معًا، وقال: إن احتلال مصر سنة ١٨٨٢ كان نذيرًا باحتلال كثيرٍ من البلاد العربية والإسلامية، وإنَّ الكارثة امتدت إلى مدًى مخيف، وإذا كان الله عز وجل قد أذِنَ بزوال هذا الاحتلال المصرىّ فمعنى ذلك أن بشائر الاستقلال ستتوالى فى البلاد الأخرى، وستناصر مصر مَن يطالبون بتحرير بلادهم من الأشقاء والإخوة كعهدها دائمًا، ثم قالَ: إن للمستعمرين جنودَهم المستترين فى الشركات والمعاهد والنوادى والصحف، يُعَبِّئُونَهُم فى اتجاههم الخاص ليكونوا طابورًا خامساً، لا يحس به الغافلون، وعلينا أن نأخذَ الحذر من هؤلاء، وقد دوَّى الحفل بالتصفيق عند هذا القول، وبه اختتم المفتى كلامه فغادر المنصّة فى هدوء.

وكنت أثناء حديث المفتى أسجّل نقاطه فى ورقة معى، ولاحظَ ذلك الأستاذ محمد كامل البناء وكان بين الحاضرين، فسألنى فى ابتسام: أراكَ لم تُسجل غير حديث المفتى، فقلْت: ألا تراهُ جديرًا بالتسجيل؟ فقال: بلى ولذلك أغبطُكَ. . ثم ظهرتْ مجلة الإذاعة المصرية، وبها حديثُ المفتى فى هذه المناسبة دونَ أن تشير إلى أنّه كان حديثًا عاما فى جمعية الشبان، فقلتُ فى نفسى، كيف تَفْعلُ المجلّة ذلك؟ ثم خطر لى احتمال أنّ محرر المجلة قد التقى بالمفتى الأكبر فى جلْسة

خاصة، واقتضت المناسبةُ أنْ يُعد له ذلك الحديث، إذ كان موضوع الساعة، وهو احتمال لايبلغ درجة الترجيح.

وفى بعض أيام الجمعة، كنتُ أصلى بمسجد الحسين، والتفتُّ إلى الصّف الأمامى، فوجدتُ الأستاذ محمد كامل البنا بين المصلّين، فسارعتُ بالتسليم عليه، فقال لى: إنّ الحاج محمد أمين الحسينى يحضر ندوة مجلة لواء الإسلام، ويسهم بالحديث الشافى مع كبار العلماء من أمثالِ عبد الوهاب خلاف، ومحمد أبى زهرة، ومحمد البنا، ومنصور فهمى، وعبد الوهاب حمودة، فكنتُ أقولُ فى نفسى: لو كنتَ معنا لسجلّتَ حديثَ المفتى كما سجلته يوم الاحتفال بالجلاء! قلت: ألاّ تزال تتذكر هذا؟ قال: بلى. ولا أدرى لماذا دفعنى كلامُ الأستاذ البنا إلى مراجعة أعداد لواء الإسلام لقراءة مادار بالندوات المسجلّة بها، فرأيتُ الحاج أمين الحسينى يبُدى آرَاءَه فيما يعرض من المسائل الدينية الدقيقة فى وضوح وشمول، وكدت أعرف أقواله وإن لم تنسب إليه، لأنه كان مُتَّسعَ الأُفق فى إجاباته، فلا يكتفى بالنصوص التشريعية وحدها، ولكنه يربط الشرق بالغرب، فيتحدث عَمَّا كتبه الخصوم ومازيفوه من الحقائق، وقد تتعرّضُ الندوة لمسألةٍ ما فى الهند أو تركيا أو فرنسا أو إنجلترا، فإذا إجابات المفتى تدلّ على دراسة مستوعبة لتيّارات تموجُ بها عواصم الدول، وهكذا رجلُ الدين حين يعيشُ فى عصره، فيرقب أحداثه المترامية فى شتى الدول، ليأخذ منها ما يؤيّد منحاه السياسىّ، والذينَ يعُالجون المسائل الاجتماعية فى ضوء النصوص المشتهرة، دُونَ أن يُحاولوا تطبيقها على مايشهدون من الأحداث، ودُون أن يُوازنوا بين رأى ورأى واتجاه واتجاه أقلّ جدوىً ممن تتّسع نظرتهم إلى هذا المدى الفسيح! ويُخيّلُ إلىّ أن الحاج محمد أمين الحسينى لو خلص من أعباء السياسة وتَفَرَّغَ إلى شئون الفكر وحدها لترك من المؤلفات السديدة مايشبع ويفيد..

ثم ماذا؟

لقد كتب الأستاذ كامل السوافيرى رسالة الماجستير عن «الشعر فى مأساة فلسطين» واختار نماذج للجارم، وعلى محمود طه، ومحمود حسن إسماعيل،

وأحمد محرم، ومحمود غنيم، وكثير من شعراء الصف الأول فى العالم العربى، وقدّم إلىَّ الرسالة بعد أن طُبعتْ طبعةً مصقولة، راغبًا أن أكتب عنها فى مجلة الأديب اللبنانيّة، ولم أجد حافزًا قويًا للكتابة، لأن الأستاذ السوافيرى تفضّل واختار لى نموذجيْن من شعرى الخاص بمأساة فلسطين، فقلتُ فى نفسى، ربما يظن القارئ إذا كتبتُ عن الرسالة أننا نتقارَض الثناء، ولكنّ السوافيرى تأثر من تباطُئى، وقال لى غاضبًا: لقد عرضتُ الرسالة على الحاج أمين الحسينى، وقرأت له كثيرًا من قصائدها، ومن بينها قصيدتك التى قلت فيها:

مازلتِ والهةً حيرى تنوحينا ... يا جارة الحى مايُبكيك يبكيناَ
علتْ نواحيك آهاتٌ مروعة ... مثل التى أصبحت تعلو نواحينا
وناح طيرك مرتاعًا فقلت له ... لقد تعلّمْتَ من أطيار وادينا
ولاحَ لى فى الكرى حلمٌ سعدت به ... كساعة الملتقى عند المحبينا
رعد يُدوّى وأصوات مجلجلة ... تصيح هاتفة، نفدى فلسطينا

وقد أُعجب بها الحاج أمين واستعادها، فكيفَ لاتكتب عن الرسالة؟ والحق أنّى استجبت وعرضت الرسالة بمجلة الأديب، وقلتُ للأستاذ السوافيرى، إذا أردتُ أن أسعد بلقاء الحاج أمين الحسينى، فكيف أصنع؟ فقال: تعالَ معى، يوم الاثنين القادم لتلقاه فى ندوة أحمد حلمى باشا، الزعيم الفلسطينى الشهير، فهى مفتوحة الأبواب للزائرين، وحان الموعد فذهبت مع الأستاذ كامل السوافيرى ولكنّ المجلس كان يضمّ الصفوة، وهم يشقّقون الحديث فى براعة، فاكتفيتُ بالاستماع، وانقضت الندوة، وقد سمعت من أقوال المفتى مايفيد، ولكنى لم أسعد بغير مصافحته حين انتهى الاجتماع وكان ذلك حسبى! وهو كثير...

* * *

العلاّمة محمد فريد وجدى
مؤلف دائرة معارف القرن العشرين

قضى ستين عامًا من عمره المديد لم يترك قلمه يومًا واحدًا إلاّ لمرض، وأبقى من الآثار العلمية مالايقدر على تأليفه لجنةٌ مختارة من الأفذاذ، وكان آية الآيات فى أدب الحوار، إذ أبدى من سعة الصدر، ورحابة النفس، وجمال التواضع ما يعدّ غريبًا فى بابه، لأن بعض مناوئيه كان يجادله بالتى هى أقبح، فلايجد غير الصفح العاقل؛ والتغاضى البصير، بل يجد الثناء على بعض ما اهتدى إليه خصمه من حقائق كانت غائبةً عن المنقود، ولا أُرسل هذا الكلام إرسالاً بدون دليل، فلدىّ الشواهد.

لقد جادَلَ المغفور له السيد محمد رشيد رضا فى بعض المسائل الدينية، وكانت فى صاحب المنار رحمه الله حدَّةٌ تدفعه إلى التعالى والاستفزاز بدون موجب، وقد تورّطَ فرمى مؤلف دائرة المعارف ومُفَسّر كتاب الله بالجهل، وقرأ فريد وجدى شطط مناظره، فأغْضى عنه، وأخذ يناقشه مناقشةَ الصديق للصديق، وأذكرُ أنّى حادَثْتُه فيما كانَ من أمره معَ السيد رشيد رضا، فقال مبتسماً: إنّ كلينْا يحارب فى جبهةٍ واحدة، هى الجبهة الإسلامية، وإذا كنّا نُحاولُ الرفق مع خصوم الإسلام لنستدرجهم إلى سماع ما نقول، فإنّ الرفق بأصحاب الاتجاه الواحد أدعى وألزم، وهى وجهة عاقلة لاتجد من يلتزمها غير الآحاد.

كما أذكر أنّ الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله، قد هَاجم الأستاذ محمد فريد وجدى فى كتاب (أوقات الفراغ) هجومًا قاسيًا، وعاود الكَرَّةَ على صفحاتِ

مجلة السياسة الأسبوعية، فردَّ الأستاذ فى أدب ملتَزم، ثم أخرجَ الدكتور هيكل كتاب (حياة محمد) فقابلهُ الأستاذ محمد فريد وجدى بإطراء ضاف ممتد، وقال: إنه من الصفحات الرائعة التى سيُكتب لها الخلود، وللرجل فى هذه المثاليات نماذج رائعة لايرتقى إلى مستواها سواه.

أول تعارف:

كنتُ طالباً بمعهد الزقازيق الثانوى، فكتبتُ مقالاً متواضعًا عن كتاب الرسول ﷺ إلى هرقل يدعوه للإسلام، سَاردًا ماروتْه كتب التاريخ عن أثر الكتاب فى نفسيّة الإمبراطور الرومانى، وعن اجتماعه بأبى سفيان، وسهيل بن عمرو، وسؤاله عن نبىّ العرب، ثم اجتماعة بالبطارقة ليناقشهم فى أمر النبى الجديد، ثم أرسلت المقال إلى مجلة الأزهر التى يرأس تحريرها الأستاذ محمد فريد وجدى، وكان ذلك تسرعا من طالب ناشئ يبعثُ بمقاله المبتدئ إلى أكبر مجلة إسلامية فى ذلك العهد، ففوجئتُ بعد أسبوعَيْن بمظروف كبير، يأتى إلىّ بالبريد، ففضضته لأجدَ مقالى مع ردّ توجيهى من الأستاذ وجدى، خلاصتُه أنّه سُرَّ أكبر السرور باتجاه طالب ناشئ إلى الكتابة فى التاريخ النبوى، وإنه يُباركُ هذا الاتجاه ويُحبِّذُهُ، ولكنه يلفتنى إلى شىء مهم، هو أنّ المقال الإسلامىّ الجيدّ ليس إعادةً للأحداث المدونّة بأسلوب مختلف الألفاظ، ولكنَّ الواجب أن يكون للكاتب رأيه الخاص، وتعليقه الشخصى على الوقائع، وتحليلُه الدقيق للمواقف الغامضة، وحينئذٍ يُضيف الجديد إلى القديم المتعارف، ثم رجانى فى تواضعٍ أنْ أُحاول الاستفادة مما قال، وذلك لايتأتَّى إلا بدوام المطالعة، والصبر على القراءة المفيدة، حتى تتكوَّنَ لدى ملكةُ الكتابة على نحو كريم.

قرأتُ الخطاب عدّة مرات، وكان أولَ خطاب يصلنى من كاتب مرموق يحتل الصدارة بين ذوى الأقلام، فأعجبتُ به أشد الإعجاب، ولكنَّ حافزًا دافعًاحثّنِى على أنْ أردّ عليه فى إجلال وإكبار، فكتبتُ أقول له:

إنى شاكرٌ توجيهه السديد، وأنه سيظلُّ مصباحًا أستضىء به، ولكنىّ مع ذلك

أصارحُه بهاجسٍ يهجس فى نفسى، هو أنّى أقرأُ لكثيرٍ من العلماء مقالات تُعيد التاريخ بدون إضافة، ويُنشر بعضها بمجلة الأزهر التى يشرفُ عليها الأستاذ الكبير، فما تفسيرُ ذلك؟! وانتظرتُ قليلاً حتى سعدتُ برد للأستاذ قال فيه: إنه ارتاحَ كثيرًا لاستجابتى لتوجيهه، وسأجْنى ثمرةً يانعة بحرصى على القراءة النافعة، أمّا المقالاتُ التى أشرتُ إليها، فهى فى مُستوى ضعيف لامحالة، ولكنّ كُتّابَها من كبار الشيوخ، ولن يخْضَعُوا لتوجيهٍ من مثله، والصحيفةُ صحيفة الأزهر، وشيوخُها فى مقدمة كُتّابها، لذلك فهو، يتّجه بالتوصيه إلى أمثالىِ من الطلاب، معتقدًا أنهم يُبشّرون بأملٍ مرتقب إن شاء الله!

قرأت الردَّ فاقتنعتُ به، وأحَسْستُ أن الكاتب الكبير أصبحَ قريبًا من نفسى، بل أحسستُ أنّه أستاذى الذى أتلقّى عليه العلم، وقد سارعتُ إلى جميع مؤلفاته وأخذتُ أقرؤها بنشوة لاأجدها عند قراءتى لغيره.

زميل كريم:

كان لى زميل من طلاب المعهد الثانوى هو الأديب (محمد المتولى النظامى) رحمه الله، وقد اتكأ على جَيْبه ومالِ أبيه، فأصدَر كتابًا صغيرًا، تحت عنوان (خواطرولمحات)، وبعث به إلى كُبريات الصحف والمجلاّت من أمثال الأهرام، والبلاغ، والمصرى، والهلال، والرسالة، والثقافة، وغيرها، راجيا أن تَنْشر إحدى هذه الصحف سطورًا مشجعةً عن الكتاب، فلم يجدْ أدنى أثر يدلّ على كتابه، مع أنّه أرسَل الكتابَ بالبريد المسجّل، وقد طلب من رئيس التحرير أن يتكرَّم بالتّنويه عن كتابه، أو نَقْده، فعزّ عليه أن يُهمَل هذا الإهْمال، وجاءنى شاكيًا متألّمًا، فسألته: هل أرسلت نسخةً إلى مجلة الأزهر، فأجابَ بالنّفى، قلتُ: سارعْ بإرسال نسخة باسم الأستاذ محمد فريد وجدى فقد يُعقّب عليها.

ثم كانت المفاجأة، حين صدرَ العدد الجديد من مجلّة الأزهر (ربيع الثانى ١٣٦٢) وبه صفحة كاملةٌ من القطع الكبير تتحدثُ عن كتاب الطالب الزميل، وقد بدأها الأستاذ وجدى بقوله:

«تنبتُ فى حُقول الجامعة الأزهرية يراعات من الطراز الممتاز ستلعبُ دورًا بعيد الشأو فى إعادة مجده، وإنّ هذه اليراعات ليترشَّح منها ـ ولما تبلغ غاية نموها ـ ما ينمُّ عَمَّا ستقوم به من رسالات علمية وأدبّية نرى المجتمع الإسلامى فى أشد حاجة إليها اليوم، وبين يدَىّ الساعة رسالةٌ تحت عنوان (خواطر ولمحات بقلم (محمد المتولى النظامى) لا أبالُغ إذا قلتُ إنها بدايةٌ تبشر بمستقبل بعيد الأثر فى تبليغ رسالة الأزهر. . .» إلى آخر ما جاء فى الصفحة الكاملة.

وقد سُرّ الزميل سرور المندهش الفخور، وسافر إلى القاهرة كى يقابل الأستاذ شاكرًا، مقدّرًا، وكان ممّا سمعه منه، أنّه يرحّب بإنتاج الشباب، ويقدّمه فى التعريف على إنتاج الشيوخ، لأن الشابَّ محتاجٌ إلى من يَشّد أَزْرَهُ كى يواصل النضال، وإنّه يُقاسى مقاساةً أليمةً من أساتذة كبار لايكتبون الجيد، ثم يطلبون أن تخصّهم مجلّة الأزهر بما تخصّ به النّابغين من الشباب، وقد يضطر إلى ترضيتهم بسطور ضئيلة، ولكنه يفسح المجال بإخلاص واهتمام للشباب الناهض!

هذا ما قاله الأستاذ، وفيه عبرة وتوجيه وانتقاد.

إلى القاهرة:

انتقلتُ إلى القاهرة طالبًا بكلية اللّغة العربية بالأزهر الشريف، فكان لقاء الأستاذ وجدى أولَ أمنية أحقّقها، فتقدمت إليه مذكّرًا بما كان أرسله إلىَّ من رسائل، فهش للقائى، وشجّعنى أن أزُوره كثيرًا كثيرًا، فحدثته عن مقالات قرأتها بقلمه وحاولتُ احتذاءها، وأهدى إلىَّ طائفةً من كتبه القيمة، وقد حدثتْ نادرة خاصةٌ به تعجبت لها، إذ كنتُ أزور قريةً ريفيّة، وكان عامل البريد بها مسيحيّاً ذا ثقافة، فجمعَنَا مجلسٌ علمى عرفت ممن خلاله أن الأستاذ محمد فريد وجدى راسَلة مراسلات علمية بلغتْ عشر رسالات، وكلُّ رسالة تزيد على ست صفحات كبار فيؤلّف مجموعها كتابًا قيما، فتعجبتُ كثيرًا، وقلتُ فى نفسى: لماذا لم ينشر الأستاذُ رسائله العشر فى صحيفة سيّارة، أو يجمعها فى كتاب مطبوع لينتفع الناس جميعًا بثماره الفكرية، بدلَ أن يخصّ بها إنسانًا واحدًا فى قرية صغيرة، وأصررتُ

على أنْ أسأله عمَّا صنع، فلّما جئتُ لزيارته قصصتُ عليه ما سمعت، ومادار بخلدى، فنظر إلىَّ باسمًا، ثم قال فى هدوء: لقد كتبتُ مقالاً عن الإسلام والمسيحيّة فى مجلة الأزهر، فأرسل إلىّ هذا الرجل ردا مليئا بالأفكار الخاطئة، وخِفْتُ أن أنشره معقّباً بدحضه، فيُحدثُ النشرُ بلبلة لدى إخواننا المسيحيّين لا أرتضيها، ثم خشيت أن أهمله فيظن حديثه صحيحًا وأنى أهملته عن غرض، فرأيتُ أن أفنّد آراءه فى كتابٍ خاص بعثتُ به إليه، ولكنه ردَّ فى إسهاب، وانتقل من موضوع إلى موضوع، فدفعنى ضميرى إلى الردّ عليه، وكررّ التعقيب فكررت الرد آملاً أن ينتهى النقاش عند حدّ، حتى إذا نَفد صبرى اعتذرتُ بعدَ عشر رسائل! ثم قال فى تواضع: إنّ الفكر أمانة، وصاحبُ القلم ليس مخيّرًا دائمًا فيما يكتب، ولكنه يُفاجأ أحيانًا بمالا سبيل إلى السكوت عنه، فيحمل يراعه كما يحمل المجاهد فى حومة القتال سلاحه، والله عليم بذات الصدور.

نزلتْ كلمات الأستاذ على نفسى نزول المطر على الأرض الجدباء، فأحدثتْ فى خواطرى اهتزازًا ناميًا نضيرًا بما يحملُ من ثمر وعطر، وجعلتُ أفكر فى قوله: إن الفكر أمانة، وإن صاحَب القلم يُفاجَأُ أحيانًا بما لاسبيل إلى السكوت عنه، فأسأل نفسى: أكل صاحب قلم يصنع ما يصنع الأستاذ؟ ثم أُمعن فى الموضوع فأساله: أهناك من أصحاب الأقلام خمسة أو أربعة يصنعون مايصنع الأستاذ؟ ولَمْ آيس، لأنّى أعلم أن الإسلام الصحيح إذا خامر نفسًا مطمئنة ارتفع بها إلى أرفع المستويات، فأتت بما يعد شذوذًا لدى العامة، وهو عند صاحبه قياسى لا شذوذ فيه.

وعجيبة أخرى، فإنّ الأستاذ محمد فريد وجدى عُرف برأيه المعتدل فيما يُسمَّى بتحرير المرأة، وقد عاصَر قضيةَ التحرير هذه منذ كتب الأستاذ قاسم أمين كتابه الذائع، فردَّ عليه حينئذ بكتاب شهير تحت عنوان (المرأة المسلمة) كان المورد الأوّل لمنْ يريد رأىَ الإسلام فى هذه القضيّة ذات الضجيج الصاخب، ثم وَاصَل الكاتبُ الكبير بحوثه عن المرأة فى الإسلام، وأبان وجهة الشريعة فى مسائل الزواج والأسرة، وتعدد الزوجات، وتعليم المرأة، والطلاق بما لامزيد عليه، وقد كتب

مقالاً فى بعض المناسبات لم يُرض أحَد الوعاظ ممّن لايبلغونَ مرتبة التلاميذ بالنسبة للأستاذ، فكتبَ مقالاً تعدّى فيه القول إلى القائل فوصفَه لما هو مبرأٌ منه، وتهوّرَ فى كلمات ماكان ينبغى أن تَصدر من واعظ دينى يجبُ أن يقف عند قول الله: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[1].

ونشرالواعظُ مقاله فى صحفية متواضعة تنتشر فى حيّز محدود، ولكنّ الأستاذ وجدى قد اطّلَع عليها، فأفردَ للرد عليها بحثًا ضافيًا فى عدة صفحات، ولم يتحدث عمَّا وُجِّه إليه من انتقاص لامبرّر له، بل وَاجَه الأفكار المتنازع عليها بما يؤيّد وجهة نظره، بجلاء، وكان على الواعظ أن يسكت أو أن يُجيب بما علَّمه الأستاذ من أدب، ولكنه ردّ فى تطاول، وعرفتُ ما كانَ، فاتصلتُ بالأستاذ وجدى لأقول له «إن الردّ على أمثال هذا المتشنج مما يزيُد من غروره» ولكنّه ابتسم قائلا: ليست القضية قضيته ولا قضيتى، ولكنها قضيةُ القارئ البصير، وهذا القارىءُ سيتلُو الرأى ونقيضَه ثم يجنح إلى ما يستصوب، فالرد واجب، ومحاولة تجاهله تأييد للخطأ، وهزيمة للصواب!

مقالات شتى:

ظل الأستاذ وجدى قرابة عشرين عامًا رئيسًا لتحرير مجلة الأزهر، وكان له فى كل عدد عدّة مقالات، بحيث لو جُمعت آثاره فى مجلة الأزهر وحدها لكوّنت أكثر من عشرة مجلدات، تتحدثُ عن أدق المشكلات الاجتماعية وتردُّ أعتَى التيارات الإلحادية، وتحلّل المبادىء الإنسانية الرفيعة للدين الإسلامىّ الحنيف، وقد وجدت نفرًا من أدعياء البحث يسطون على كثير من أفكارها فى غير حياء، ولم يُشيروا إلى المصدر المنهوب أدنى إشارة، فقُمتُ بجمع ماكتبه تحت عنوان (مهمة الإسلام فى العالم) وهو أربعة وعشرون بحثًا توضّح رسالة الإسلام فى إنقاذ البشرية، وإخراجها من ظلماتها الدامسة إلى مشارق النور، ثم تفضلت اللجنة العليا للدعوة الإسلامية بالأزهر الشريف بطبع هذه البحوث الجليلة فى كتاب

(١) سورة النحل ـ آية ١٢٥.

خاص أنيق المظهر، جيّد الطبع، وقد صُدر بكلمة ممتازة لأخى الأستاذ الدكتور عبد الودود شلبى، أمين اللجنة العليا، الذى اهتمّ بنشر الكتاب على أوسع نطاق، وقد خصّ به الذين سرقوا أفكاره، ناسين أن الحق حق، وأنه لايعدم أنصاره، مهما غمره النسيان، ولا تزال بين بحوث الأستاذ فى مجلدات مجلة الأزهر عدة كتب قيمة، منها الفصول الرائعة التى كتبها تحت عنوان (السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة)[1] فى أكثر من أربعين فصلا، ومنها ماكتبه تحت عنوان (الروح الإسلامية ومدى تأثيرها فى النفوس)، ومنها ماكتبه تحت عنوان (ليس من هنا نبدأ) ومنها ماكتبه تحت عنوان (فى معترك الفلسفيّين) ومجلدات المجلّة محفوظة بمكتبات القاهرة والمعاهد الدينيّة، فهل تجد هذه اللآلئ المتناثرة نظامًا يجمعها فى نسق متّصل، ليسْهل تداولها بين القارئين؟

إيثار وإنصاف:

تلقّى الأستاذ الإمام محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر سؤالاً عن الشرك وعقوبته الأخروية، وقد اشتط السائل حين قررَّ أن الإسلام بالَغَ مبالغةً كبرى فى عقوبة الشرك، إذ جعله دونَ الذنوب جرمًا غير مغفور، إذ يقول الله عز وجل فى كتابه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[2].

وتطرّق السائل إلى تعسُّفات ظنيّة لاتتصل إلى اليقين بسبب، فأحال الأستاذ الإمام هذا السؤال إلى الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى، وإلى الأستاذ العلامة محمد فريد وجدى، ليكتب كل منهما ردا شافيًا من وجهة نظره، وكأنّى بالشيخ الأكبر، وقد رأى الأستاذيْن ـ مع اشتراكهما فى جبهةٍ واحدة وهى جبهة الدفاع المخلص عن الإسلام ـ يفترقان فى الثقافة العلمية افتراقًا يفسح مجالا لوجهتى نظرٍ تتباعد وتتقارب، وهذا ماكان؛ إذْ نَحاَ الأستاذ الدجوى مَنْحى يعتمد

(١) تفضلت (الدار المصرية اللبنانية) للنشر، بطبع هذه الفصول الرائعة فى كتاب خاص، صادف ارتياحَ أهل العلم، وأنا بسبيل إعداد كتب أخرى للأستاذ وجدى، آملاً أن ترى النور قريبًا إن شاء الله.

(٢) سورة النساء آية ١١٦.

فى أكثره على الأدلة النقليّة مستطردًا إلى أمور تَمُتُّ إلى الموضوع من بعيد، وقد جاءتْ لأدْنى مناسبة كما يقول الأزهريون، أما الأستاذ وجدى فقد استعان بمقررات العلم الحديث ليثبتَ أنّ الدين فطرىّ، وأنّ الشِّرْكَ نكسةٌ طارئة كان زوالها محتّمًا لدى مَن يُقدرون الكرامة الإنسانية، وقد نقلَ عن أئمة العلم الاجتماعى فى أوربّا، ما يدلُّ على أنّ البشرية كانتْ موحِّدة فى نشأتها الأولى، إذ عبَدَت الله وحده مهتديةً بفطرتها الخالصة، حتّى طَرأ من الزلل ما أدى إلى الشّرك، كما تابع آثارَ الانحطاط الإنسانى لدى الهمجييّن من الوثنييّن فى بلاد مختلفه شرقًا وغربًا، وظهر مقالاَ الأُستاذَيْن: الدجوى ووجدى، متجاورين فى عدد واحد، وقد شاءَ بعض المتحمّسين لمقال الأستاذ وجدى أن يبالغَ فى الثناء عليه معقّبا على مقال الأستاذ الدجوى بما ينبئ عن الاستخفاف لا التقدير، وكأنّه كان يريد استمالةَ الأستاذ بما يقول، ولكنَّ العلامَة الأصيل، قد قاطع المتّحدث فى أدب، وقالَ إنّه استفادَ من مقال الشيخ الكبير ما أضافَ الجديد إلى رأيه، وأنه نَشَرهُ قبلَ مقاله، اهتمامًا به، واحتفالاً بما أفاضَ به الرجل الحجّةُ من خواطر تمسُّ الوجدان المسلم، وترفع من مستواه، ورجَا الناقدَ أن يعود إلى مقال الدجوىّ مرة ثانيةً، وألا يكتفى بالنظرة الأولى، فتململَ المتكّلمُ دون أن ينطق، ثم آثر الانسحاب، فخرَج بعد مدى قصير.

وشاءَ بعض الحاضرين أن يتنقصَ الناقد بعد خروجه، ولكنَّ الأستاذ وجدى قالَ فى هُدوء: من يَدْرى لعلّه كان يعتقد صحة ما يقول، وَقَدْ هَديتُه إلى ماغابَ عنْه، ومن فضله أنْ قَرأَ ووازَن، فهو خير «ممّن لم يقرأ ولم يفكّر، وأحّب أن تكونَ مجالس العلم موضوعيةً لاذاتية، فهذا أولى بكرامتنا.. سمعتُ ذلك كلّه فتَلّقيتُ درساً من دروس الأخلاق.

نظرة إمام كبير:

مَاتَ صاحُب جريدة الأهرام جبرائيل تقلا باشا، فأفردَ الأستاذ وجدى صحيفة من مجلة الأزهر للثناء عليه بعد رحيله، ولكنَّ بعض الذين لايفهمون سماحة

الإسلام عَدُّوا ذلك موضعَ نقد لايجوز، وسارعُوا إلى الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر حينئذ يقولُون فى صخب: إنّ بعض الكبار من علماء الأزهر ينتقلون إلى رضوان الله فلا يخصّهم الأستاذ وجدى بنعْى ضاف كما فعل مع صاحب الأهرام، فابتسم الشيخ الأكبر وقالَ لمحاوره، أَمَعَكَ مقالُ الأستاذ وجدى؟ قال: نعم، قال هلّم فاقرأ، فأخذ الشيخ يتلُو المقال منفعلاً، وكان الشيخ الأكبر قد قرأه من قبل، حتّى إذا بلغ القارىء منتصف القول، وهو فى قمّة انفعاله، قال له الشيخ سأقرأُ أنا، ثم أخذَ المجلَّة يتلُو فى جمال نَبْرَة، وحُسْنِ إلقاء، قولَ الأستاذ وجدى:

«إنّ الأزهر ومجلته لَتُشَارِك الأمة فى أساها، وتذكُر من فضائل الفقيد الكبير ما كانَ يُقابل به بحوثَ حضرات العلماء من الاحترام، ويُحلّها فى أرفع مكانة من الأهرام، ولطالَما نشر مقالات فى موضوعات علمية بحتة كان أولى بها المجلاّت، ولكنّه كان يُؤثر أن يكونَ عونًا للأزهر فى أداء رسالته، وفى عهده الجديد، ومما يدلّ على عنايته بهذه الناحية، أنه عندما ثارَ جدالٌ بين القائلين بجواز ترجمة معانى القرآن والذّاهبين إلى تحريمها، وانتصَر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى للقائلين بالجواز، نشَرَ الأهرام بحثهَ فى عدد واحد على طوله، ولم يكنْ فضيلتُه شيخًا للأزهر إذ ذاك، فهذه النزعُة الشريفة مضافةً إلى الكثير من غيرها لايصّح أن تُترك بدون تقدير وإعجاب، فلا غَرْوَ أنْ عُدتْ خسارةُ الآراء الحكيمة بموته فادحةً، أحسنَ الله عزاء أسرته، وجعل من نجله خلفًا جديرًا بسلفه العظيم».

ثم قال الأستاذ متسائلا: أفهتُمم مرمى الجملة الأخيرة!؟ إن الأستاذَ وجدى يعْرفُ أن الأهرام أقوى صحف العالم العربىّ، وأوسعُها انتشارًا، ويخاف أن تتخلّى عن طريقة صاحبها الراحل فى تشجيع المباحث الإسلامية، فأشارَ إلى الخلف باحتذاء السلف! فلو لم يكنْ له فى مقاله غير هذا التوجيه لكانَ جديرًا بالثناء لا بالانتقاد!

تراجَع المعترض قليلاً ثم سأل: ولماذا لايكتبُ الأستاذ وجدى عن الراحلين من العلماء الأزهريّن كما كتبَ عن صاحبِ الأهرام؟

فردّا الشيخ يقول: مَنِ الدّارسُ الخبير لهؤلاء؟ أنُتم أم الأستاذ وجدى! لقد سكَتُّمْ فلم تكتبوا شيئًا وأنتم زملاء وأصدقاء، وأولو خبرة بالقوم؟ أيُلاَمُ الأستاذ وجدى إنْ سكَتَ عن قوم لايكادُ يعرف عنهم شيئًا؟ ولاَ تُلاَمون وأنتم تعرفون كلّ شيء ثم تقّصرون! كنتُ أفهم أن يقولَ أحدكم: كتبتُ مقالاً فى تاريخ فلان رحمه الله ثم حالت المجلة دون نشره! هُنا يجبُ أن نسألَ، وأعرفَ لِمَ حُجِبَ المقال؟ أمّا أن نلومَ رجلاً محدود الاتّصال بالعلماء لأنه لم يكتبْ عنهم، ولانلوم أنفسنا فكثير..

وأراد الإمام المراغى أن يغيّرَ وجهة النقد الصائب، فقال: لقد نشَر فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون مقالاً ممتازًا بالجريدة اليومية عن صاحب الأهرام، وذكر فيه أكثر ممّا ذكر الأستاذ وجدى، فلماذا لا تعترضون عليه إذن؟ لقْد صادفَ مقال الأستاذ أبى العيون ارتياحِي لأنّه ينحو منحى مقال الأستاذ وجدى، فهل لديكم ما تقولون؟ وانتهى المجلس بالاعتذار.

هذا قليلٌ من كثير أعلمه عن الرجل الكبير، وقد تحدثت عنه بَعْد رحيله فى مناسبات كثيرة، ولا أزال أهش فرحًا بالكتابة عنه، لأنه فى دنيا الخُلُق الرفيع مثالٌ يُحْتَذَى، ونحن نرى كثيرين يفهمون الأصول الصحيحة للأخلاق الرفيعة ويتحدثون عنها فى خطب رنانة، ومقالات دوْريّة، ولكنهم لايَلْتزمون بكثير مما يتحدثون، فإذا رأيْنا بين منَ نعرف مَن يلتزم بما يقولُ تطبيقًا ـ مهما عادَ عليه قول الحق بالمضايقة المرهقة لَدى من يحترفون الدسائس والمضايقات ـ فإننّا نفرحُ كل الفرح حين نجد المثل المنشود إنسانًا كريمًا يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، رحمه الله..

* * *

الشيخ محمود شلتوت

كان اسم الأستاذ محمود شلتوت يُدوِّى فى الدوائر الأزهريّة، والأندية الثقافيّة، بما يُذيعه من آراء صائبة فى التجديد الدينى، والإصلاح الأزهرى، وقد كنتُ طالبًا بالقسم الابتدائى بالأزهر حين علمت أنّ الأستاذ شلتوت قد جاء للتفتيش التربوىّ بمعهد دمياط الدينى الذى أتعلم فيه، فتمنيتُ أن يكون الفصل الذى أجلسُ به بين الفصول التى يمرّ عليها الزائر الكبير، وبخاصة أنّه يفتش على مواد اللّغة العربيّة والشريعة الاسلامية معًا، وقد تحقّق ما أرجُو حين رأيتُه يزور الفصل، وكان الدرس درس المطالعة فى كتاب يُسمَّى (المطالعة المختارة) ألّفهُ جماعةٌ من المربّين على رأسهم الأستاذ أحمد العوامرى عضو مجمع اللّغة العربية، وفوجىء الأستاذ بدرس المطالعة، فابتسمَ وقال: إنّه كان يودّ درسًا فى الفقه أو النحو، ثم استمع إلى قراءة أحد الطلاب على النحو المتّبع إذْ ذاك، فما فرغَ الطالب عن موضوعه، وقام آخر ليتلوه، حتّى أشار عليه بالسكوت ليقول لنا جميعًا: إنّنى لا أحبّذُ أن يقوم الطلاب بقراءة موضوعٍ واحد على التوالى، لأنّ طالب الأزهر قد حفظ القرآن الكريم قبل أن يلتحق بالأزهر، فما معنى أن يتدرّب على القراءة فى السنة الرابعة وهو يقرأُ كتابًا عميقًا مثل شذور الذهب لابن هشام فى النحو، والنهاية للبوصيرى فى الفقه، وفيهم من يقرأ بدون قصور، نعمْ إن هذه هى الطريقة المتبعة فى المدارس والمعاهد، ولكنّى أرى ـ هكذا قال الأستاذ ـ أن يُقْرأ الموضوعُ مرّةً أو مرتين فحسب، ثم يختار الأستاذ موضوعًا من قراءاته، يقرؤُه ويشرحُه، ويتلوهُ طالب بعده، وتكون أفكاره موضع الحوار، وقد يختارُ الطالب موضوعًا ويعرضُه على أستاذه ويسمعه زملاؤه، فتتنوع القراءة ويكونُ درس

المطالعة مفيدًا، هذا ما أراه، وسأكتبُه فى تقريرى الذى سأرفعه، ثم ابتسم وهو يقول لنا: أأنتم موافقون؟

كان حديث الزائر الكبير جديدًا علينا، فقد أَلِفْنَا فى مدى السنوات الأربع أن نقرأ الموضوع الواحد فى الحصة الواحدة بدون اعتراض، وهانحن أولاء نرى نقدًا هادفًا من أستاذ كبير، كما ألفنا أن يأتى المفتشُ ليناقش، ويسأل فيما أُخذ من قبل، أمّا أن يُنقد ويقترح، ويسأل الطلاب عن اقتراحه فى تواضع، فهذا هو الجديد، وأذكُر أنَّا تحدثنا مع مدرس الفصل بعد خروج الشيخ فقال: كيف تفترضون فى الأستاذ شلتوت أن يكون مفتشًا تقليديا، وهو مفكر كبير؟!

ظلت زيارة الأستاذ عالقة بذهنى، وأنا أتابع مقالاته السيّارة فى الصحف، وكنت أعرف أنه من أخلص تلاميذ الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى، دافع عن مذهبه فى الإصلاح الأزهرى، وتعّرض للفصلِ من وظيفته بسبب هذا الدفاع هو وجماعة من أفاضل الزملاء، ثم عاد إلى العمل بعودة الأستاذ المراغى إلى مشيخة الأزهر، كنتُ أعرف هذا، ولكنى فُوجئت بحديث فى الصحف عن محاضرة نقدية ألقاها الأستاذ شلتوت ـ وكان إذْ ذاك وكيلاً لكلية الشريعة الإسلامية ـ تحت عنوان: «السياسة التوجيهيّة فى الأزهر»، دارتْ حول انتقادٍ للسياسة التعليمية بالكليات والمعاهد، إذ أخذت على الأساتذة اعتمادَهم على الكتب المتأخرة لُيناقشوا الألفاظ لالليلخصوا القضايا ويبدوا آراءهم المستقلة بها، كما أخذتْ على الإمام المراغى نكوله عن الإصلاح التعليمى الذى دعَا إليه فى مذكرةٍ شهيرة كانت البدء الحاسم لخطواته الإصلاحيّة، وركونه إلى أساتذةٍ من أعداءِ الإصلاح، إذ أَلِفُوا القديم، وحاربوا التجديد المثمر، ثم اقترح الأستاذ مابه يمتُّد سير الإصلاح، وقد كانت المحاضرة ذات دَوِيٍّ، لأن بعض الناس رآها هدمًا لابناء، ومجابهةً لشيخ الأزهر ذاته، ولكنّ الذين يحبوّن الحق لذات الحق أعجبوا بالمحاضر الكبير وسَعَوْا إلى طبع المحاضرة، وأُرسِلت للمعاهد والكليات كى يقرأها أبناء الجيل الجديد، وهكذا أصبح الرجل ذا رأىٍ جهير يدعو إليه، ويجمع حوله الأنصار، وينابذ الخصوم، والحق أن الإمام المراغى لم يضقْ بالمحاضرة كما حاول

المتملّقون أنْ يذيعوا ذلك، ولكنّه اجتمع بالأستاذ شلتوت، ليناقشه فى ود وإنصاف.

تركتُ الدراسة الثانوية لألتحق بكلية اللّغة العربية بالقاهرة، وكان مَن مزايا هذه الحقبة الجديدة أنْ أحضر الندوات العلمية، وأرى أعلام الأدب والفكر يتصدرون قاعات المحاضرات العامة، ليحاضروا المجتمعين ويناقشوهم فى أدقّ القضايا، وقد أعلنتْ دار الحكمة بشارع القصر العينى عن محاضرات دينيّة فى تفسير القرآن يلقيها كبار الأساتذه أسبوعيا، ومن بينهم الأساتذة محمود شلتوت، وعبد الوهاب خلاف، وعبد الوهاب عزام، وعبد الوهاب حمودة، فاجتذبتْ هذه المحاضرات الأنظار من كل اتجاه وكان طلبة الكليات بالأزهر أسرع الراغبين إلى الحضور، وقد تحدّث الأستاذ محمود شلتوت عن التفسير الموضوعى للقرآن، وضرب المثل له بما ذكر عن سورة النّساء، وكان اسم التفسير الموضوعى جديدًا على الأذهان منذ نصف قرن، لم يشتهرْ كما اشتُهر الآن، وقد خرجْنَا من المحاضرة فى حيرة، لأن الشيخ الكبير ذكر أن التفسير الموضوعى هو جمع «للموضوع الواحد من سُور شتّى، حتى تتكامل الفكرة العامة فى الكتاب، وهذا ما نسلّم به، ولكنّه قال فيما قال: قد يكونُ التفسير الموضوعى خاصا بالسورة الواحدة، فيتحدثُ المفسِّر عن أغراضها، وارتباط كل غرض بسابقه ولاحقه، وكان تفسير الشيخ لسورة النساء مما ينحو هذا النحو، وهذا ماكان موضع الخلاف، وأذكُر أنّى تناقشتُ مع زميلى الأستاذ محمد عبد الحليم أبو زيد، وكان رحمه الله من أنبغ طلاب الأزهر، فقلْت له: إن سورة النساء مثلا لاتعطى الفكرة العامة لأحوال المرأة فى القرآن، فلدينا سورة الأحزاب، والنور، والطلاق، وكلها تعالج شئون النساء، فكيف يكون تفسير سورة النساء تفسيراً موضوعيّاً بالمعنى المفهوم؟ وطالَ حوارى مع الزميل الفاضل، وكان ذاصلة وثيقه بالشيخ شلتوت يحضر ندواته ويؤمّ منزله، فعرضَ عليه ما قلتهُ بعد سماع المحاضرة، وقال: إنّى أعرض وجهة نظر تتطلّب الجلاء، فابتسمَ الشيخ وقال، سأتناول هذه القضية فيما بعد، ومن سرورى أن يعترض طلاب الكليات على ما أقول، فهذا فاتحة الخير.

لم تُتح لى الظروف أن أسعد بلقاء الشيخ شلتوت قبل أن يتولّى مشيخة الأزهر، لأن عملى الرسمى قد بعد عن القاهرة فى عواصم الأقاليم، ولكّنى كنت مشغوفًا باستماع أحاديثه الإذاعية، وقراءة مقالاته وبحوثه الدينيّة، بحيث أعد نفسى أحد تلاميذه الكثيرين، وأذكُر أنى نشرت مقالاً بمجلة الأزهر حين رأس تحريرها الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات تحت عنوان (كتابة المصحف بالإملاء الحديث) وهى دعوةٌ قد تكون مخطئةً وقد تكون صائبة إلى كتابة المصحف الشريف بالطريقة التى يفهمها الطلاب، لأنّ وزارة التربية والتعليم كانت توزع المصحف الشريف على طلاب المدارس الثانوية، فيتعثرون فى القراءة، ولايستطيعون النطق الصحيح إلا فى آيات الدرس الدينى وحده، وحين يقرأ المدرّس ويتابعونه، فقلتُ فى نفسى: ما فائدةُ المصحف إذنْ وهو لايغنى وحده دون موجّه خاص؟ وكيف تضيعُ مئات الآلاف من المصاحف بدون أن ينتفع بها الطلاب على الوجه المنشود، وقد استشهدتُ بأقوال أئمة من السابقين يرحبون بهذا الاتجاه، منهم عز الدين بن عبد السلام، وابن خلدون، ورحّب الأستاذ الزيات بالمقال فنشره بدون إبطاء، ولكنَّ ثورةً عارمة قد أحاطت به من كبار الأساتذة فى الأزهر، واتصل الشاكون بالأستاذ الأكبر محمود شلتوت يعترضون على نشرِ المقال، وكنتُ إذ ذاك مدرسًا بالمنصورة الثانوية، فطلبنى الأستاذ الزيات تليفونيا، ليقول لى: إنّ الأستاذ الأكبر الشيخ شلتوت يريد لقاءك، كما أشارَ علىّ الأستاذ أن أزورَه بمكتبه قبل لقاء الشيخ الأكبر، وكنت خالى الذهن عن هذه الشكايات التى تكاثرتْ على المجلة وعلى مكتب الشيخ، وتوجهتُ للقاء الأستاذ الزيات، فأطلعنى على أكثر من عشرةِ ردود ذاتِ نقد صارخ، وقد اتجه بعضها إلى السباب الجارح، وقال لى، سأختار منها ما يجادل بالحسنى وأنشره كى تهدأ الثائرة، ثم قال إن الأستاذ الأكبر يريدُ مناقشتك فيما كتبت، وأنا أشير عليك أن تقول له إن هذا هو رأى الأستاذ حسين والى، لأنّ الشيخ الأكبر يعتبر نفسه تلميذًا للشيخ والى ويُكثر من الإشادة به فى مجالسه العلمّية، وهذا هو الواقع لأنّ للشيخ والى (وكان رئيسًا جهيرًا للجنة الفتوى بالأزهر، وعلماً من أعلام هيئة كبار العلماء،

ومجمع اللغة العربية) رأيا أتفق معه فيما كتبت، وقد نشرهَ ودافع عنه، وإن لم أسعدْ بقراءته، ولو قرأتُه لاستشهدتُ به، ثم طلبَ الأستاذ لى الإذن من مكتب الشيخ، فتوجهت إلى لقائه متهيّباً مفكراً، وجلستُ فى المقعد المقابل للمكتب، فقال الشيخ فى ابتسام:

أريد أن أعرف يا أستاذ، ألاتزال تحفظ القرآن حفظًا جيدًا كعهدك به فى صباك؟ قلت نعم، يا سيّدى، فضحك، وقال: لو قلتَ لا، لقلت لك، احفظ القرآن أوّلا، ثم تحدث عن طريقة كتابته، وإن مجلة الأزهر يابنىّ فى رأى الناس تصدر عنْ فكر الأزهر نفسه، وفيهم من يتوهم أن كلّ كلمة تنشر بالمجلة قد زكاها شيخ الأزهر وباركها، فإذا كان لَكَ رأى جديد، فابتعدْ عن نشره لدينا، فأنت لاتعلم أن (الملازم) التى جاءتْنى معارضةٌ لك، تؤلّف كتابًا فى جزأين! وكُلٌّ عند نفسه مصيب مصيب.

تذكرت كلمة الأستاذ الزيات، فقلت: ياسيّدى أنا تابعٌ لامتبوع لقد استشهدتُ بآراء شيخ الإسلام العز بن عبد السلام، ومؤرخ الإسلام ابن خلدون كما نسيتُ أن أذكر رأى الأستاذ الكبير الشيخ حسين والى، وهو علم الأعلام فى الأزهر ومنحاى يقتفى منحاه.

فابتسم الشيخ، وقال: أنت لا تعرف أنّ الشيخ والى خيرُمن استفدتُ منهم بالأزهر، لقد كان عميق الغور فى كل ما يبحث، لايرضى بغير الغوص البعيد، إنّه أوّل مَن كان يكتب يوميا فى كلّ معهد دينى يعمل به سبورة اليوم اللّغوية، وقد جعل عنوانها «قُلْ ولا تقل» فيأتى بتعبير دارجٍ مخطئ ليضع جواره التعبير الصحيح، والذين يكتبونَ التحقيقات اللّغوية اليوم عيالٌ على سبورة الشيخ حسين والى، كانت الصحف تتناقل تصويباته، وهذا ما لا يذكره أحد الآن! وأنا أستشهدُ بذلك لأقول إنه لم ينس حق الطلاب فى التوجيه وهو شيخ مرهق يتفرغ للإداريّات، وقد انتقلتْ طريقته إلى طائفة من شيوخ المعاهد، منهم الشيخ أبو العيون، أو الشّيخ سليمان نوّار، ولكنْ على فترات متقطعة، وليسَ على التوالى! ثم مدّيدهُ إلىَّ وهو يقول بارك الله فيك، فعرفت أن المقابلة قد آذنت بالتمام فانصرفت شاكرًا.

علمت بعد ذلك من الأستاذ الزيات أن الشيخ الأكبر قد قال له: دَعْه يكتب فى كل عدد، كما علمت أنه قرأ مقالاً لى بمجلة الأزهر تحت عنوان (من سماحة الإسلام) تحدثتُ فيه عن مكانة أبى إسحاق الصابى فى الدولة الإسلامية بالعراق، إذ كان الكاتبَ الأول لعضد الدولة، وله الرأى المسموع، والتوجيه النافذ، وهو بعد صابئ لايدين بالإسلام، ولكنه محفوظ المكانة، مرعى الجانب، أقول تفضل الأستاذ الأكبر فقرأ المقال، وقال للأستاذ الزيات: هذا مقالٌ جديد، لأنه يضرب المثل التطبيقى من أحداث التاريخ، ولابد لمن يُعالج موضوعاً كهذا الموضوع ألا يكتفيَ بالنصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، وبعض ما قام به الخلفاء الراشدون، فهذا كلّه مكرر مشتهر، ولكنْ تجب الإضافات من صفحات التاريخ المتوالية ليعرف الناس صوراً من التسامح الإسلامى التطبيقى على مر الأجيال.

سمعت حديث الزيات عمَّا قال الشيخ ففرحت كثيراً، وتشوقت إلى لقائه، ولكنى أعهد فى نفسى عزوفًا عن زيارة الرؤساء بدون دعوة منهم، فلم أسعد برؤيته بعد اللقاء الخاص بكتابة المصحف الشريف، وقد كتبتُ عنه أكثر من مرّة، لأعرض بعض اتجاهاته فى عالم التحقيق الفقهى، والإصلاح التعليمى بالأزهر الشريف،

* * *